

جديد وعصري للقرآن، سوف يكون في ثلاثين جزءاً تماماً مثل أجزاء القرآن، كل ما أتمناه أن تتاح لي الفرصة كي أنتهي منه قبل أن أدخل السجن من جديد.

ولكن "تور الله" لم يستطع أن يخفي دهشته، هتف وهو يرشف الشاي الساخن:

— ولكنك كما سمعت خارج لتوك من السجن، متى كتبت كل هذا؟
قال ببساطة:

— في السجن بطبيعة الحال، لقد لجأت دور النشر التي أعمل معها إلى حيلة في غاية السذاجة ومع ذلك فقد نجحت، لقد رفعت علي قضية وعلى الحكومة بحجة أن وجودي داخل السجن لن يجعلني أتمكن من الوفاء بتعاقدي معها، وأن عليها أن تجعلني أواصل الكتابة، من المدهش أن المسؤولين البيروقراطيين دخل السجن قد أصابهم الرعب وسمحوا لي بالكتابة، لقد منحوني مساحة هائلة من الحرية دون أن يدروا بذلك، ففي النهاية لم يسجنوا سوى جسدي.

احتار "تور الله"، هل يسأله عن هذا المؤلف أم عن تجربته الطويلة داخل السجن، ولكن الشيخ قطب لم يكن في

حاجة لمن يسأله، تتناول كوب الشاي وجلس خلف المكتب وبدأ يشربه بسرعة، وهو يضيف:

— كان أشد ما أفقده في السجن هو كوب من الشاي الساخن مثل هذا، حتى الآن لا اصدق أنني أحس بسخونته في كفي.

— ماذا كانت تهمةك؟ تفسير القرآن؟

— عشر نهم على الأقل، الانتماء إلى تنظيم محظور هو الإخوان المسلمين، محاولة اغتيال رئيس الجمهورية، محاولة قلب نظام الحكم، استخدام العنف ونشر الأفكار الهدامة وغير ذلك، كان نصيبي في مقابلها خمس عشرة سنة، قضيت منها عشر سنوات، لم أعتقد أنني سوف أخرج منها على قيد الحياة، ولكن يقال — ولا أعرف إن كان هذا الأمر صحيحاً أم لا— أن الرئيس العراقي عبد السلام عارف هو الذي توسط من أجل هذا الإفراج المبكر، يبدو أنه قد قرأ لي كتاباً في مكان ما، ولا بد أنهم أيضاً قد خافوا من أن تتعفن جثتي داخل السجن.

فرغ من شرب الشاي في رشقات قلل، وهو يتسائل:

— ما أخبار السجون عندكم يا شيخ؟

— مساحات شاسعة من الثلوج لا يستطيع أحد أن يغادرها حياً.

— في مصر تحاصرنا الرمال الساخنة.
تري أين أنت الآن يا "لطف الله"، هل مازلت متخفياً في عالم الظلال، وهل ستجد من يتوسط لك إذا ذهبت إلى عالم الثلوج، حاول "تور الله" أن يركز في اللحظة الراهنة، قال:
— هل كتبت الكثير يا شيخ قطب؟

أشار الرجل في لامبالاة إلى رف مزدحم بالكتب وهو يقول:

— كما ترى، لم أكن ذا نفس راضية، طوال عمري وأنا أمارس النقد، بدأت أولاً بنقد الأدب، ثم أخذت في نقد المجتمع، وقادني ذلك إلى نقد الفكر الجاهلي الذي يحكم هذا المجتمع، ولكن هذا لا يساوي كتاباً واحداً أريدك أن تأخذه إلى بلدك وأن تدع كل من تعتقد أنه قادر على التفكير في أمور ديننا وديننا أن يقرأوه، لقد وضعت فيه خلاصة عمر كامل من القهر والنفي والسجن والبحث، إنه ثمرة سؤالي وإلحاحي على الله سبحانه وتعالى أن يهديني سواء السبيل.

مد يده وأخرج كتاباً صغيراً وناولته إلى "نور الله"، تطلع إلى عنوانه "معالم على الطريق"، هل كان هذا الكتاب هو سبب دعوته لزيارته في المنزل، هل المطلوب منه أن يحمله إلى تركستان، رفع "نور الله" رأسه وتأمله، كانت شخصيته مزيجاً من حزم "لطف الله" وشاعرية "قادري"، ويبدو أنه مثلهما يسعى إلى قدره المحتوم، نهض الشيخ قطب، تلفت حوله انتابته فجأة حالة من القلق والتوتر، قال:

— ألا ترى مدى ضيق هذه الغرفة، إن أنفاس الحرية فيها قليلة، ما رأيك أن ننطلق إلى الخارج، إلى ظلام الليل؟
قال "نور الله" في تردد: ولكن ألسنت مراقباً؟

— بالطبع أنا مراقب، ولكنها مراقبة بائسة، منذ لحظات كان الشخص المكلف بمراقبتي هنا داخل المنزل، كان يطلب عشاء وكوبا من الشاي، تخيل كيف يمكن أن يراقبني هذا المسكين وسط هذا البرد والظلام وهو جائع ومقرور هكذا، هيا، لقد كف في النهاية عن متابعتي في جولاتي الليلة، أنه يعلم أنها أشبه بنيه بني إسرائيل.

كان الشيخ قطب في حاجة إلى فراغ الليل الممتد، إلى لمسات من الهواء النقي، أحس "نور الله" أن عطشه للحرية لم

يرتو بعد، كان يكفيه أن يجلس في هذه الغرفة في لحظات الكتابة فقط، لعل إحساسه بأن هذه اللحظات قصيرة ومؤقّة هو ما يجعله يسعى دوماً إلى حيث يمتد فراغ لا يحده أفق، هبطاً معاً فوق الدرج المتآكل، خرجاً إلى الشارع الضيق، أشار الشيخ قطب إلى ركن مظلم ملاصق للمنزل وهو يقول: — هنا يجلس المسكين.

كان هناك رجل بالفعل يقبع فوق الأرض مستنداً إلى الجدار وقد التفت في معطف قديم ووضع على رأسه غطاء صوفي، كان بانساً بالفعل، كيف لم يره وهو يستعد لدخول المنزل، رفع الرجل إليهما وجهه متعباً تأملهما قليلاً في حيرة، هل ينهض ويسوح خلفهما في الشوارع أم يبقى في مكانه واثقاً من عودة المشبوه، تتأعب في تعب ثم أغلق عينيه وانكمش على نفسه، تركاه وواصل السير، دخلاً وسط تلافي من الشوارع التي تحيطها الأشجار، ظل الشيخ قطب يسير مسرعاً وصامتاً كأن له غرضاً يسعى إليه بلهفة، لم يسترح إلا عندما وجدا نفسيهما على شاطئ النيل، هدأ من سرعته والتفت إليه وهو يقول في نبرة يغلب عليها المرح:

— أنت من بلاد الأنهار، وهذا هو نهرنا الوحيد، آخر
فرصة للحياة بالنسبة لنا.

كان الهواء يزوم في صوت خافت وهو يحرك أغصان
الشجر، وخيل إلى "تور الله" أنه يسمع استغاثات الطيور وهي
عاجزة عن التثبث في أعشاشها، ورغم ذلك بدا النيل مثل
كائن ضخم مستغرق في النوم رغم الأضواء التي تتراقص
على سطحه، كان هناك مركب ذي شراع أبيض مرتفع،
طائر ليلي وحيد الجناح، يسبح عكس التيار، قال "تور الله":

— إنه نهر وحيد حقاً، ولكن ما أشد مهابته.

تأمل الشيخ قطب المركب في شروء، بدا كأنه يستعيد
بعض اللحظات القديمة:

— ولدت بجوار هذا النهر شأن العديد من المصريين،
وتعلمت الكثير من قسوته، قرّيتي اسمها "موشا" بجوار
أسيوط، عندما يفيض هذا النهر كان يحيط بقرّيتي ويعزلها
عن العالم، لم نكن نستطيع أن نغادرها أو نعود إليها إلا
بواسطة القوارب، كنا نعيش على حافة الغرق في بيوت مبللة
ومهددة بالانهيار، لم يكن النهر قدرنا، ولكننا نحن الذي
صنعناه، تخلفنا وتواكلنا، هكذا عالم الإسلام، جزر غرقى،

معزولة، تحيط به أمواج تلك الحضارة الزائفة، والحقبة أنها ليست حضارة إنها جاهلية جديدة.
قال "تور الله":

— ولكنكم ياشيخ قطب لستم مثلاً، أنتم تعيشون في ظل أنظمة إسلامية، تمارسون كل شعائركم في حرية دون تسلط، لا يوجد حظر ولا حصار.

قال الشيخ قطب في قوة:

— هذه الأنظمة لا تحمل من الإسلام إلا الاسم والشعار، من يحكموننا هم الطواغيت، إننا نعيش ياشيخ "تور الله" في جاهلية جديدة كما قلت لك، نفس الجاهلية التي عرفها التاريخ قبل الدعوة الإسلامية، لأننا نحكم بشرائع وقوانين وضعها البشر ولم يضعها الشرع الإلهي.

— وما عيب هذه القوانين؟

— إنها تنتكر لمبدأين أساسيين جاءت بهما الدعوة الإسلامية، أولهما هو ألوهية الله في مواجهة ألوهية البشر، وثانيهما هو حاكمية الله في مواجهة حاكمية البشر الذين يعبدون بعضهم البعض من دون الله.

كان كلامه قاسيا ومثيرا للدهشة، يشعر به "نور الله" أكثر منه، ولكنه لا يستطيع التعبير عنه بهذه الطريقة، ولا يستطيع أن يتصور إعادة عجلة كل هذا الزمن إلى غياهب الجاهلية، من المؤكد أن القومسير كان طاغوتا صغيرا، ستالين كان صنما معبودا، وكانت كل القوانين ومازالت تحاصره وترغمه على أن يعيش بنصف قلب ونصف عقيدة، كان الليل يأخذهما بعيدا، كأنهما يسعيان إلى منبع هذا النهر الغريب، بل الشيخ قطب نفسه كان يسعى إلى منبع أبعد غورا، يريد أن يوقف الزمن وأن يقبض على رماله المنسربة، ربما يمكنه أن يعيد تجربة الدعوة الأولى بتمامها، يحلم أن تأتي طليعة مؤمنة، كأنهم صحابة جدد، بعثوا بعد أن أتم صاحب الأكبر رسالته، وختم شرائعه، تجتاز كل التفاصيل وكل المراحل، بكل ما فيها من آلام لأنه الثمن الطبيعي لمثل هذه المهمة، المرحلة الأولى إعداد خفي وترقب وانتظار، تماما كما حدث في بدايات الدعوة داخل مكة، وربما تطول هي أيضا إلى ثلاثة عشر عاما، جهادا داخليا، يتستر أحيانا ويظهر عن نفسه أحيانا، ولكنه يجب أن يتواصل حتى يكشف الأقنعة عن طواغيت الحكام وتقيم

الحاكمية لله، وتلي ذلك فترة المدينة التي تقام فيها الحكومة الإسلامية جهارا نهارا، فتصنع فتحا جديدا وتحطم كل ما تم بناؤه من أوثان، فيأله من حلم يا شيخ قطب؟

كانت قدما "تور الله" قد أحسنا بالتعب، ولكن بدا أن هذا الرجل النحيل لا يكل من السير ولا يكف عن الحلم، كانت طاقة التحدي التي بداخله لا تتأثر بجسده الواهن ولا بالنظام الذي يواجهه، تذكر كلمات المفتي، وتذكر أنه قد خاض في مغامرته أكثر مما ينبغي، كان الشاطئ الذي كان خاليا في أول سيرهما قد امتلأ بمخلوقات الليل، رجال شرطة يتسكعون، يتأملون ما حولهم في ريبة دون أن يتعرضوا لهما، باعة الذرة المشوي وحمص الشام، نسوة داكني الملامح يدخن في شراهة، قوارب صغيرة مزينة بمصابيح مرتعدة يدعوك أصحابها في إلحاح للتنزه على صفحة النهر، ورغم قدمه المتعبة لم يكن قد أشبع فضوله من الرجل، كان يستعد من أجل سؤاله الأخير، قال:

— ولكن يا شيخ قطب، ما أنت حقا، هل تطالب فقط بإصلاح ديني، أم أنك خارج على النظام، كل ما أعرفه أن

هذا الرجل "عبد الناصر" يتمتع بسمعة طيبة، فهل هو طاغية لهذه الدرجة؟

بدا على الرجل وهن مفاجئ حتى أنه لم يستطع الوقوف منتصباً، استند إلى السور المطل على النهر، وعندما تحدث كان صوته مليئاً بالمرارة، قال:

— هؤلاء العسكر، لقد آمنت بهم أكثر مما ينبغي، عندما قاموا بالثورة أحسست أنهم قاموا بها من أجلي، ومن أجل "موشا" الغارقة وسط فيضان النهر، لقد دافعت عنهم وعن أخطائهم اللعينة، حتى عندما قتلوا عمال "كفر الدوار"، ولكنني لم أستطع أن أدافع عنهم وهم ينحون مبتعدين عن الإسلام، فلا حاكمية إلا لله، ولا شريعة إلا من الله، ولا سلطان لأحد على أحد لأن السلطان كله لله.

توقف، كان الحديث والانفعال قد أجهده، وكانا قد وصلا معا إلى نهاية طريق ما، أشار الشيخ قطب إلى المبنى المرتفع المطل على النهر وهو يقول:

— هاهو فندقك، لقد حرمتك من ساعات من النوم.

ولكن "تور الله" أمسك في يده الكتاب الصغير وهو يقول:

— لماذا دعوتني إلى بيتك يا شيخ قطب؟

قال ببساطة:

— من أجل أن أعطيك هذا الكتاب، لقد كانت "تركستان" ذات لحظة عقل الإسلام وروحه المتيقظة، وربما استطعنا أن نستعيد هذا العقل الذي افقدناه طويلا، اقرأ هذا الكتاب، إن فيه خطتنا من أجل بعث الإسلام، هل تذكر كتاب "الينين" الشهير "ما العمل؟"، ربما يشبهه الكتاب في تحديده العملي، ولكنها خطتنا التي يجب أن يعرفها الجميع؟

احتضن "تور الله" الكتاب، كان يحمل حلم الشيخ قطب وربما وصيته الأخيرة، تلفت حوله، كان الشارع خال من أي سيارة، وهو يتساءل:

— كيف ستعود كل هذه المسافة؟

قال وهو يبتسم: على قدمي طبعاً، كيف أفوت لحظة تبدو فيها المدينة بهذا الاتساع وتلك البراءة.

ألقي عليه السلام وأدار ظهره وعاد السير في خطوات مننشية، ظل "تور الله" يراقبه وهو يواصل الابتعاد: — "لقائي به كان قصيراً، ووداعي له كان أخيراً، فعندما عدت إلى القاهرة مرة أخرى كانت حافلة بكل شيء

ما عداه، لقد مر بي أشبه بنبي غريب في زمن غريب، يبشر
بحلم الإنسان النقي، حلم أكبر من طاقتنا جميعا"
لم يفتح الكتاب إلا والطائرة تمرق به عبر السماء
وأفريقيا تبتعد، تحجبها عنه أكوام من السحب الرمادية، كان
لقاؤهما جولتهما معا قد مرت في سلام، حسبها الجميع سعيا
وراء مغامرة ليلية، لم ير الشيخ قطب في قاعة المؤتمر بعد
ذلك، كأنه كان قد جاء خصيصا من أجله، ليعطيه هذا الكتاب
المركز الذي يحوي حلما كان عصيا عن التحقق، طوى
صفحاته الأخيرة عندما بدت "طشقند" مثل مدينة غافية في
حضن زمن لا يتغير، ورغم كل ما تتغنى به الصحف
السوفيتية من أنها "يونوتيا" الشيوعية إلا أنها الآن تبدو قرية
ضائعة، باهتة الأضواء، عاجزة عن دفع كميات الظلمة التي
تحيط بها.

خيل إليه أنه قد نسي القاهرة، استغرقه عمله في الإدارة
وفي التجوال بين الجمهوريات المختلفة، شاهد جميع أشكال
المسلمين، كانوا هم أيضا لا يحملون من هذا الإسلام إلا
الاسم ونسب الورثة، كانوا بؤساء، سنوات الضغط
المتواصلة قد زرعت في داخلهم الخوف من القيام بأي طقس

من طقوس العبادة؟، كانوا خاضعين تماماً، كأن سنوات القمع أغلقت في وجوههم كل أبواب الأمل، كان الإسلام يذوي في "الكومينات" المتباعدة، خيل إليه أنه قد نسي الشيخ قطب، أو على الأقل وجد أفكاره مثالية أكثر مما ينبغي، قرأ الكتاب أكثر من مره دون أن يتوصل إلى وسيلة تنقذه من ورطته الشخصية فما بالك بورطة الإسلام، تحول كلماته إلى شوكة مؤلمة لا يستطيع أن يتجاهلها، أو يعمل بما فيها، عزم على أن ينفذ وصية الشيخ، فليذهب الكتاب إلى من يستحقه، إلى "خيوّة" حيث يوجد "لطف الله"، الوحيد القادر على استيعاب هذا الحلم العصي المنال، وضعه داخل مظروف مغلق وسلمه إلى أحد مشايخ "خيوّة" الذين كانوا يمرون بالعاصمة، وتخلل مرة أخرى أنه قد نسي الكتاب والرجل الذي خلفه، ولكنه أرغم على تذكره وهو يركب الطائرة مرة أخرى مسافراً إلى القاهرة بعد أشهر قلائل:

— " كنا تقريبا نفس الوفد الذي سافر في المرة الأولى، ولكننا كنا في مهمة مختلفة، كان عبد الناصر الذي أخذ ينحو بشدة نحو تطبيق النظام الاشتراكي، قد قبض على كل الذين يعارضونه، أسلوب مألوف وطبيعي عندنا وعندكم، وكان

واجبنا — كما أكد لنا القومسيير — أن نذهب إليه، كوفد من المسلمين السوفيت لنبلغه تأييدنا إزاء ما فعله ضد المسلمين في بلاده، مفارقةً مثيرة للسخرية، لو عرض القومسيير هذا الأمر على "لطف الله"، لرفض الأمر وربما بصق في وجه القومسيير وتحمل نتيجة فعلته، أما أنا فقد ركبت الطائرة وسط وفد من الدمي وذهبت معهم للتهنئة لأنه قد تفضل وقبض على الشيخ قطب".

قضى "نور الله" ليلته الأولى في رحلته الثانية للقاهرة وهو مقهور وكسير الفؤاد، كان الأمر أشد مرارة مما اعتقد، بعد أن وصلت طائرتهم بقليل علم أن كان حكم الإعدام قد صدر بحق الرجل الواهن النحيل، بحق السماء، لماذا كانوا في عجلة من أمرهم إلى هذا الحد؟ رغم الاستقبال الذي لقوه ورغم أن شيوخ الأزهر كانوا يبذلون لهم علامات الترحيب إلا أن جوا من الرهبة كان يسود كل شيء، كان "ديموقليدس" قد شرع سيفه وجعل العاصمة الأفريقية تمام مرتجفة الفرائص، وفي الصباح المبكر جاء رجال الأمن وفحصوهم جيدا قبل أن يصحبوهم في عربة شبه مغلقة إلى "قصر القبة"، كانت المدينة على وشك اليقظة، نتحسس خطاها في

حركات غير واثقة، تأمل وجوه البشر العابرين، كم واحد منهم يشعر بالحزن من أجل الشيخ المغدور، كانت صور الزعيم بوجهه الأسمر وضحكته المشرقة تملأ الميادين والشوارع المؤدية للقصر، هل هي سعادة نصر ما، وهل يستأهل الانتصار على شيخ واهن القوى كل هذه الضحكة، هبط الوفد أمام البوابة الداخلية للقصر، وساروا جميعا فوق طرقة من السجاد الأحمر، تخطف أبصارهم عدسات التصوير التي لا تكف عن الوميض، لم يكن "تور الله" مضروبا أو مهانا أو مقبوضا عليه، فلماذا إذن يتذكر إذن تلك المرة الأولى التي دخل فيها مبني القومسيرية في "بخارى"؟

فتح أمامهم أكثر من باب، وتحولت ممرات القصر إلى مناهة ملكية، وكانوا يقتربون ببطء من المكان الذي يكمن فيه عبد الناصر، كان واقفا أمامهم، يصافحهم واحدا بعد الآخر، وعدسات التصوير قد انتابتها حمى مجنونة، كان وجهه أكثر سمرة مما يظهر في الصور، ولكن عينيه النافذتين كانتا تضيئان وجهه، تضيفان عليه نوعا من السحر الأسر، ولكن أنفه الضخم كان يكشف عن ميله الغامر للسيطرة، لم يكن يبتسم تقريبا، وكان يرد على كلمات

المجاملة والتأييد بإيماءات غامضة، ترى هل يتشابه هذا القصر مع قصور "الكرملين"، كانت التيجان المذهبة تملأ أركان القاعة، لم يحاول إخفاءها، بل ربما كان يستمتع بوجودها، كان هناك إفطار خفيف في ركن من القاعة، وطوال الوقت و"تور الله" يراقبه من بعيد، يخاف أن تظهر على ملامحه كل ما يخفيه من مشاعر، وظل أيضا حريصا أن يكون أقلهم كلاما، ولكنه لدهشته الشديدة وجده يقترب منه، يقف أمامه كأنه قد أدرك بغريزة فذة أن لديه ما يقوله، توقع أن يقول له هذا القومسير الأسمر نفس الجملة فجأة: أنا أعرف كل ما تخفيه، ولكنه لم يقل ذلك، قال له بهدوء:

— كيف حالك يا شيخنا؟

كان مجرد سؤال مجاملة تقتضيه أمور الضيافة، كان يحدق فيه بلا ابتسام ولا اهتمام، قال "تور الله":

— بخير ياسيدي الرئيس، بخير

ولكنه لم يكن يستطيع أن يتوقف، أحس أنه يوشك أن يجهش بالبكاء، أن ما في داخله أشد قسوة من أن يكتمه أو يتحملة، بدا كأن الشيخ النحيل قد وضع بين يديه جزءا من مصيره، وأن مسيرتهما معا على شاطئ النيل كانت مصادفة

قدريّة، اختزلت المسافات ومزجت بين زمنيهما، وجد نفسه
يقول كأنه يستخلص جزءاً من روحه:

— إنه شيخ عجوز، واهن القوى.

نظر إليه في تمنع، بدا كأن ذكاؤه الحاد قد خانه، ربما
للمرة الأولى في حياته، قال مستقسراً:

— من تعني؟

قال "تور الله" بصوت بالغ الخفوت تمنى ألا يسمعه أحد
غيرهما:

— الشيخ قطب.

لم يبد على وجهه أي تعبير، لا مفاجأة ولا غضب، سلط
عليه عينيه كأنه يعيد تقيمه أو يحاول أن يعرف كنهه، رفع
حاجبه قليلاً وقال بتمهل وبصوت أكثر خفوتاً:

— هل هذا رأيك الشخصي أم أنه موقف رسمي؟

قال في اعتذار مخنوق: شخصي بالطبع، أعرف أنه
ليس من حقي أن..

رفع يده يسكته بإشارة موجزة وهو يقول:

— أنت تتحدث العربية بشكل جيد، لبتك تعطي أمورك

المحلية نفس الاهتمام.

أدار ظهره ومضى مبتعداً، توجّه للمفتي وأخذ يتحدث إليه، ترى هل يخبره بما قاله "تور الله"، هل يحدثه عن مدى وقاحته، ظل "تور الله" يراقبهما واجفاً، لم ينظر أحد نحوه، وعندما غادروا القصر كان هو وحده الذي يشعر بالهزيمة، لم يحدثه أحد طوال الطريق، من الواضح أن الرئيس لم يتكلم، كان الأمر أتفه من أن يثير قضية من حوله، أخذ "تور الله" يدعو الله ألا يتم الإعدام إلا بعد أن يغادر مصر، لم يتحمل أن يجلس تحت أسوار القلعة مرة أخرى ليسمع الطلقات المميتة ويرى الطيور المفزوعة، ورغم ذلك عندما ركب الطائرة شعر بالخجل لأنه لم يبد إلا هذا الاعتراض الهزيل، كان في حاجة لمن يحدثه، لمن يصف له هذا الإحساس العميق بالذنب الذي يستشعره.

بعد أيام من وصوله إلى "طشقند" ودون أن يخبر أحداً ركب القطار، قام برحلة طويلة كان يجب أن يقوم بها منذ زمن بعيد، عبر صحراء "قزىل قوم"، عبر وديان وسهول، وطوال الطريق وهو يعد كشفاً طويلاً بكل الأخطاء التي اقترفها، حانت لحظة الحساب التي أجلها طويلاً، كان يبحث عن شيء يعيد الأمان إلى روحه المرتجفة، كان يعرف أنه لا

يوجد في هذه السهوب الشاسعة من يستطيع أن يمنحه المغفرة، وأن المسافة شاسعة بينه وبين السماء النائية.

كانت "خيوة" مدينة غريبة، لم تغادر التاريخ إلا قليلا، شوارعها ومعظم بيوتها تنتمي إلى عهود الخانات، سار في الشوارع القديمة وتقبل تحايا الناس واستمع إلى كلماتهم، يا إلهي، كم تبدو هنا الروسية بعيدة والعربية قريبة من ألسنتهم، ذهب إلى المدرسة الدينية التي يلقي فيها "لطف الله" دروسه، لم يكن موجودا، لاوجود لمكتبه، كما لا يوجد أسمه على لائحة المحاضرين، مسكنه الصغير مغلق، صاحبة البيت التي ترعى شئونه لم تر شيئا ولم تسمع شيئا، كان بقية الذين قابلهم يظهرون ضيقهم، كان السؤال يخرجهم من ألفتهم اليومية وصمتهم القسري، ذهب إلى ركن المسجد الذي كان "لطف الله" يجلس فيه وسط حلقة الطلاب، جلس أمام المحراب الخالي، كانت معظم الفسيفساء التي تكسوه قد تساقطت، لم يبق على الجدران إلا حروف من آيات ناقصة، هل جلس "جنكيزخان" في هذا المكان، هل بكى خجلا من كل ما اقترفه كما يقال، ترى لماذا انتابته هذه اللحظة من الضعف، ولماذا لم يبادر بإحراقه كعادته؟ لقد أبقى على

البقعة الوحيدة على ظهر الأرض التي شهدت لحظة ضعفه، ربما كان في هذا المكان سر أسر يصيب الإنسان بهذا الضعف، كانت هناك العديد من الحمام التي تنام في دعة في الكوات التي تحيط بقبة المسجد، راقدة فوق بيضها، غير مهددة برحيل مباغت، المصلون شاحبو الوجوه ينظّاهرون أنهم مجرد زائرين للآثار، يقيمون صلواتهم وهم وقوف، دون ركوع أو سجود، كل شيء هنا محرم حتى السؤال عن صديق قديم، خرج "تور الله" من المسجد وهو خافض الرأس، أخذ القطار يهتز به عائدا إلى "طشقند"، يحيط به أناس غرباء تقوّلون منهم روائح ننتنة، لماذا يكثر المسلمون من شرب "الفودكا" أكثر من الروس؟:

— في "طشقند" عشت زمنا ميتا، جسدا بلا روح نستحق أن نقبض أو نبعث، لا أدري كيف ترقيت في الإدارة الدينية، لم أصبح مديرها فقط ولكنني استطعت الإفلات من كل الذين يحاولون التعلق بعباعتي وجذبي إلى الوراء، والشيء القليل الأهمية في ذلك الزمن استطعت أن أتزوج، زوجا تقليديا خاليا من الحب والبهجة والشبهات، يناسب جسدا بلا روح كجسدي".

لم يكن "تور الله" وحده هو الذي يشعر بأعراض المرض، الدولة كلها كانت تحتضر، تتفسخ أطراف البراري الواسعة، وتقصد أعراقها كل ما فيها من دماء، من النادر أن يشاهد المرء لحظة غروب إمبراطورية بكل تلك الضخامة وكل هذا الجبروت، في العادة يبلغ عمر لحظات التحلل عقوداً طويلة من الزمن، ولكن ما يحدث الآن هو أشبه بالانهيار المفاجئ، كل الشعارات التي ارتفعت اكتشف خطأها فجأة، وفي كل لحظة كان يتم اكتشاف عدو كان من الواجب التخلص منه منذ زمن، بشكل أو بآخر أصبح الكل مدان دون سبيل للخلاص، تحول الحوار إلى صرخات، ثم جاءت الدبابات لعلها تخرس كل الأصوات، كان "الأوزبيك" الذين كانوا ذات يوم فخر الاشتراكية قد أصبحوا ذنبها الأوحـد، غاضت المياه في أرض الأنهار وجفت زهور القطن قبل أن تتفتق عن لمحة من التوهج، ثم تغلب اليأس الخوف وخرج الأوزبيك الذين صمتوا طويلاً إلى الشوارع وهم يصرخون في صخب، تذكر "تور الله" المظاهرة الأولى من أجل إنقاذ "ميرعرب"، كانوا يصرخون الآن من أجل خلاص نفوسهم، ترك القومسير كل ما كان من عنده من تقارير وملفات وفر

هارباً، انهارت أسطورة السوفييت، ووقف الناس أمام المبنى الضخم مذهولين، وتمنى "تور الله" لو أنه يدفع نصف عمره حتى يوجد من يحضر إليه كل ما يخصه من أوراق وتقارير داخل هذا المبنى، بكل سوءاته ونقاط ضعفه، أحس أنه قد أصبح عارياً أمام الجميع، تنسلت خيوط العباءة وانفرطت العمامة من فوق رأسه، وجد "تور الله" نفسه يرتجف برداً وخوفاً، لم يقدر حتى على الذهاب إلى مكتبه في الإدارة الدينية، ظل حبيس بيته لأيام طويلة، لم يجرؤ على النظر حتى لوجه زوجته ولا لبناته الصغيرات، ثم تحولت أصوات الاحتجاجات إلى أصوات فرح، لم تأت الدبابات السوفيتية التي كان يتوقع الجميع قدومها، ضلت طريقها وسط المتاعب الجديدة في شوارع موسكو، ارتفعت أهاليج الفرع وأصبحت أبواق سيارات لا تنقطع، ورفرف في الجو علم أزرق مليء بالأهلة التي تحيط بها النجوم، خرج من زمن ما ليرتفع عالياً بدلاً من الأعلام القانية الحمراء، وكذلك انبعث لحن تركي قديم، مليء بالشجن والذكرى ليكون نشيداً وطنياً، أخيراً أصبح هناك وطن، وليس جزءاً ناتئاً من إمبراطورية واسعة، غيرت الريح اتجاهها، وتفتقت زهور القطن البيضاء فتدفقت

مياه الأنهار تحت كل الجسور القديمة، وظل "تور الله" هو الوحيد الغارق في صمته الخانق، متى سيأتون إليه ومتى تحين لحظة الحساب؟، متى تقصح هذه الدولة عن وجهها، وأين أنت الآن يا "لطف الله"، في الشمال وسط أصقاع سيبيريا، أم في الشرق في وهاد قرقيزيا، هل يمكن أن يتذكره أحد أم سيضيع ذكره وسط هذه التغيرات المتوالية؟

أيام كثيرة مرت وهو أسير الصمت والعزلة، لم يجرؤ على الخروج إلا عندما هدأت الضجة في كل الطرقات وبدأ أن الحرس قد ملوا من مداهمة البيوت، أحس بالحيرة وهو يسير في شوارع طشقند المغطاة بندى الصباح، كانت هناك بقية من خريف شاحب، وأشجار مبللة الغصون تبدو مثل أشباح طالها ضوء النهار وهي مازالت في غفاتها، أشباح مثله تعاني من ماض قلق ومستقبل غائم، كانت الإدارة الدينية شبه خالية، رفع الحارس الليلي يده في تكاسل وهو يحبه، لم يحاول اعتقاله أو حتى منعه من الدخول، هبط إلى القبو حيث يوجد المصحف العثماني راقدا في قفصه الزجاجي، رأى قطرات الدم وهي تتساب خارجة من بين الصفائف المطوية، صعد إلى أعلى حيث يوجد مكتبه،

نظيفاً ومرتباً بعناية متعمدة، جلس وفتح أمامه بعض المراجع القديمة وأخذ يحاول التشاغل بالقراءة، اطل عليه وجه "الطف الله" من مكان ما، ألم أحذرك من غواية "طشقند"، بدأت أصوات الحياة تدب ببطء في طرقات الإدارة، وقع أقدام ولغط وأصوات متداخلة، كأن كل شيء لم يغير وكأنه يعيش يوماً عادياً من أيام الوظيفة.

فتح الباب وراهم جميعاً واقفين وهم يحدقون فيه، لعلهم كانوا يتساءلون من أين جاء هذا الشبح؟ تدخل حمزاتوف سكرتيره الخاص، أشار لهم في حزم أن يتعدوا جميعاً، ثم جلس أمامه دون أي كلفه، لم يجرؤ على فعل ذلك من قبل، نظر مباشرة إلى عينيه وهو يقول:

— أين كنت بحق الله يامولانا، إنهم يبحثون عنك، جاعوا إلى هنا أكثر من مرة، وظل هائف منزلك يرن دون مجيب، هل سافرت خارج طشقند؟

شعر "تور الله" بالضيق من جلوسه أمامه ومن طريقته في الكلام، ضيق أكثر من الخوف الذي في داخله، قال:

— من الذي يريدني؟

تلقت حوله قبل أن يقول: أجهزة الأمن طبعاً.

— ألم يرحلوا؟

— رحل السوفيت فقط، كل شيء باق على حاله وهم يريدونك على وجه السرعة.

كابوس لا ينتهي، ولكن يبدو أن الأمور لم تصل به إلى حد الإدانة، وربما تحدد هذه المقابلة المصير الذي ينتظره، خرج من الإدارة الدينية وواصل السير على قدميه حتى منتصف المدينة، كان في حاجة إلى إنهاك جسده لعل روحه تهدأ قليلاً، كان مبنى الأمن على حاله، لم تزل من على واجهته إلا الأعلام والشعارات السوفيتية، ولم يزل من على أرضه إلا السجاد الأحمر العتيق، انكشف قبح الدرج المتآكل، وبدا قدم الجدران العارية، ولكن العديد من الوجوه لم تتغير، والمكاتب موجودة بنفس الترتيب، ولكن السوفيت لم يكونوا خلفها، كانوا أوزبيك يحاولون عبثاً التخلص من مفردات اللغة الروسية التي كانت تلفهم بقيود غير مرئية، ولكن هذا لم يغير كثيراً من الأمر، في نفس المكتب الذي كان يدخله، استقبله شخص ما، اكتشف بصعوبة أنه ليس "القومسير" القديم، ربما كان يراه بعين الوهم، وربما كان إتقان الآخر للتقليد هو السبب الذي جعل "نور الله" يعتقد في كل مرة أنه

يقابل قومسيرا جديدا، نفس الوجه الشاحب المستطيل الذي حرم طويلا من نور الشمس، العينان الباردتان ونبرات الصوت الحادة، ولكن بلهجة مختلفة، كان يحاول أن يطوع اللغة الأوزبكية النينة للغة المخابرات، والأرجح أنه لم يكن لينجح في ذلك، ففور أن أخرج الأوراق من داخل الملفات القديمة فرضت اللغة الروسية نفسها عليهما، أنه أمر مفرع أن تبقى أسيرا للذين فروا، كان القومسير الأوزبكي يتحدث كثيرا، ولم يكن "تور الله" يستمع إليه بشكل حقيقي، لم يعرف إن كان يتحدث إليه كمدير للإدارة الدينية أم بوصفه متهما، نهض أخيرا وتناول ملقا لم يره "تور الله" من قبل، أخرج منها صورة باهتة بالأبيض والأسود وألقاها أمامه، انتفض "تور الله" واقفا، تناولها بأصابع مرتعدة وعينين توشكان أن تدمعا وهتف في حرقرة:

— "لطف الله"، هل ما زال على قيد الحياة؟

قال الرجل ببرود يفلق الحجر:

— لقد عاد يثير لنا المتاعب مرة أخرى.

إنه حي إذن، حي ويمارس حياته الطبيعية، يثير المتاعب كدأبه، أحس "تور الله" بفرح غامر، كأن جزءا من